

مقدمة

أعدتُ غطاءً قلمي وانحنيتُ في مقعدي إلى الأمام، وقد ضغطتُ بمرفقي على المكتب، تواقّة إلى ما عرفت أنه آتٍ لاحقاً.

كان اليوم الأخير لفصلي الدراسي الثالث في كلية هارفارد للأعمال. أقول بعبارة مهذبة: إن الأمور في الأشهر القليلة الماضية لم تكن على ما يرام. ففي السابعة والعشرين من عمري، وجدتُ نفسي أول مرة في وضع مالي سيئٍ لم أعرفه فعلياً من قبل. وفي رحلة البحث عن عمل، حضرتُ جلسات المعلومات عن الشركات التي عُقدت في الجامعة كلها تقريباً؛ حيث قدم مسؤولو التوظيف القلة، الذين حضروا عروضاً مبهجة عن الأماكن الرائعة التي يعملون بها، وأضافوا بسرعة أنهم يقبلون طلبات المتدربين في العطلة الصيفية فقط. لم تكن عودتي إلى شركتي القديمة خياراً أيضاً؛ فقد عرفت حديثاً أنها كانت تسرح الموظفين بالعشرات.

وحين انقضى نصف السنة الدراسية، تعاظم في داخلي الشعور بالتناقض والتشوش، إذ عرفت في أعماقي أنني محظوظة وشاكرة لما تحقق لي: مزيد من الوقت في الكلية، وتعليمٍ مرموق، وشبكة من الأصدقاء الذين أحببتهم. ومع ذلك لم أستطع في الوقت نفسه التخلص من الشعور

بالقلق، بل بالذعر. أتعبني التساؤل عن كيفية سداد القرض الطلابي الضخم عند التخرج. وبقيتُ يائسة أرغب في أن يأتي أحدٌ ويجلس معي على طاولة المطبخ، ويصب لي فنجاناً من القهوة ويشرح لي - بلطف فيه حزم- أن كل شيء سيكون على خير ما يرام. بدأتُ أشك في نفسي وفي خياراتي. متسائلة: هل كانت إدارة الأعمال مناسبة لي بعد هذا كله؟ ولكي أستمِر بمهنتي المُختارة، كنت بحاجة إلى عمل بالطبع، ولكن ما يعادل ذلك في الأهمية، ضرورة أن أستعيد بعض ثقتي بإمكانيات قيادة الأعمال التجارية. لقد كنت بحاجة إلى تجديد الطاقة والإلهام.

لذلك جلست على حافة مقعدي أنتظر أن يبدأ الأستاذ الحديث.

ومثل كل جلسة مقرر نهائية في الكلية، كانت هذه الجلسة بعيدة عن الروتين. ولت أيام مناقشة «دراسة الحالة» والإيقاع النمطي للصف: حيث ترتفع عشرون يداً في الهواء لكل سؤال يطرحه الأستاذ، وتضج تعليقات الطلاب بالحياة والإثارة، فتتحل عقدة الآراء المتشابهة تدريجياً فيما يتعلق بما يجب على الشخصية الرئيسية في الحال أن تفعل. اليوم بقيت السبورات خالية، إذ لخص الأستاذ الأفكار الرئيسية للمادة، وشرح صيغة الامتحان النهائي. كان مئة منا يدونون الملاحظات المختصرة على عجل، وبعد ذلك جمعنا أوراقنا وأغلقنا حواسيبنا، ولدنا بالصمت؛ لم يكن الدرس قد انتهى بعد. في تلك الدقائق القليلة الأخيرة، سيروي لنا المدرس قصة من حياته، ويقدم لنا النصيحة الفضلى التي عرفها.

كان ذلك تقليداً متبعاً في الكلية، وفي الفصلين الأولين سمعت تقريباً عشرات من هذه القصص، فدهشت في البداية، ثم غرقت -مسحورة- في التفكير. سمعت عن التحديات الشخصية للأساتذة، وعن نجاحاتهم وأخطائهم، وعن اللحظات التي شعروا فيها مثلي بالإنهاك أو الإرهاق أو الارتباك. كانت هناك حكايات مسلية وتأملات أظهرت سنوات من التفكير، وقصص تركتنا جميعاً على وشك البكاء. ألقى أحد الأساتذة خطبته بمساعدة شرائح مفصلة ببرنامج «باوربوينت»؛ متكئاً بغير اكتراث على الطاولة؛ في حين ذرع آخر الغرفة جيئةً وذهاباً حاني الكتفين، ممسكاً بصفحة ملحوظات مكتوبة على ورقة رسمية صفراء. بدا بعضهم مستغرقاً في أحلام اليقظة عند الحديث، كما لو أنهم مثلنا يسمعون القصة أول مرة؛ وتحدث كثيرٌ منهم بلا مبالاة، هامسين بتعليقات هازلة، لقد كان الحديث مختلفاً باختلاف شخصيات المتحدثين، لكنه متسق في الوقت نفسه: تصدى كله لطريقة إيجاد حياة أفضل -حياة ناجحة- لك بوصفك قائداً.

تركني كل حديث من هذه الأحاديث أفكر ملياً في رسالته المهمة عدة أيام. وعندما سمعتُ زملائي يكررونها على مائدة الغداء في «الكافتيريا» والمقاهي المحلية، عرفت أنهم تأثروا بها بعمق مثلي. وما إن جلستُ في الصف في ذلك اليوم من أيام كانون الأول في انتظار أن يبدأ الأستاذ الدرس، حتى تساءلت قائلة: إذا كان لقصة واحدة فقط القدرة على أن تؤثر في كل هذا التأثير، فماذا قد تفعل بي أو بأي شخص آخر عشر أو أكثر من أفضل القصص؟ فجأة ومضت فكرة في ذهني.

فكرت: يجب أن يدون أحد هذه الأشياء.

بدأت المهمة قبل تخرجي، وبعد ثمانية عشر شهراً كان هذا الكتاب هو النتيجة، إذ يضم خمس عشرة عبرة فريدة من حياة أعضاء هيئة التدريس في كلية هارفارد للأعمال؛ بعضهم أساتذتي، وكلهم خبراء في تعليم القيادة.

مع أن هذه المقالات مستلهمة من نصائح قُدمت إلى الطلاب الشباب في ماجستير إدارة الأعمال، في لحظة خاصة من حياتهم، إلا أنها قابلة للتطبيق على كل من يريد أن يعزز قدرته القيادية، أو يبحث عن ناصح مخلص حين يضطلع بمهنة متحدية (فبغض النظر هل تواجهه يوماً الأول في العمل أم تجلس الآن في مكتبك، تظل بحاجة إلى الإلهام نفسه). وبينما تركز هذه القصص بؤرة الاهتمام على القيادة في عالم الأعمال، فإنها يمكن أن تساعد في حث القادة وتحفيزهم في أي مكان؛ في المشايخ أو الجامعات أو الشركات أو الأسر.

طوال ذلك الصيف القاطظ، بدأت أقترح فكرتي على الأساتذة واحداً تلو الآخر. اخترت القصص التي ألهمتني على وجه الخصوص، أو تلك التي مارست تأثيراً كبيراً في زملائي في الصف، مضافة إليها إسهامات من عدد من أعضاء الهيئة التدريسية الذين أعجبت بهم، ورأيت أن أفكارهم تناسب روح هذا الكتاب. وبدلاً من تسجيل وتدوين خطاباتهم الأخيرة، أجريت مقابلات شخصية، وعملت بعد ذلك على نحو وثيق مع كل أستاذ على «ترجمة» أفكاره الشفهية بكلمات مكتوبة. أحدهم، وهو صحفي سابق، أعد مقالته من البداية إلى النهاية. وفيما يخص أستاذاً آخر، عدلت مادة أعدها ثلاثة من طلابه السابقين.

وحين بدأت أشاهد هذا المخطوط وهو يأخذ شكله النهائي، لاحظتُ أن أفكار المقالات اتجهت إلى التشابك والتداخل وكلها تركزت حول أفكار القيادة الشخصية، وتحدث التصنيف بوصفها قصصاً إنسانيةً معقدة. وعندما تابعت العمل، بدأت أصنفها ذهنياً في أربع فئات متميزة. ورتبت الكتاب وفقاً لهذه المجموعات.

في «اكتساب منظور» يتناول الأساتذة طرُقاً تعينك على التفكير بنفسك في العالم. يشرح جاي جايكومار ماهية الحظ ولماذا يجب عليك أن «تستمع وتحتفي بحياتك». وعبر حكاية مسلية يساعدك جيفري ريبورت لكي تجد الثقة بنفسك في لحظات الاضطراب والشك والتشوش. ويتفحص ريتشارد تيدولو ماذا يعني فعلاً أن «تكون شبيه ذاتك» في العمل، ويقترح توماس مكرو أن عليك، قبل النظر إلى مستقبلك، أن تفهم ماضيك.

يقدم قسم «إدارة ذاتك» تقنيات وأدوات -تكتيكية ونفسية معاً- لفهم مهنتك. إذ يسلط ستيف كوفمان الضوء على مآزق وأخطار ارتقاء السلم. ويعلمك ديفيد بيل طريقة المجازفة دون وجل. وتدعك نانسي كويهن تلقي نظرة خاطفة على نفسك الإجمالية غير الكاملة. وتروي روزابيث موس كانتر كيف ساعدتها أسطورة هوليوود كاثرين هيبورن على التحدث بوضوح وصراحة.

في «قيادة الآخرين» يستكشف كل كاتب طريقة حث وإلهام وتفهم الزملاء الذين تعمل معهم. ويقدم كنت بوين تذكرة مؤثرة ولاذعة تشير إلى أن المهني شخصيٌّ دائماً. وتؤكد فرنسيس فري أن الشخص

الكريم يعني أنه كثير المطالب صعب الإرضاء، سواء كان لاعباً في ملعب أو موظفاً في مكتب. ويبين تيم بتلر الطريقة التي تستفيد بها من عواطف موظفيك ومواهبهم، لتؤثر في النتيجة النهائية. ويوضح توم ديلونج الطريقة التي تستطيع بها أن تمارس تأثيراً إيجابياً في الذين يعيشون حولك في كل مكان وكل زمان.

يستكشف ثلاثة من الأساتذة معنى التفوق والامتياز في «بناء القيم»، ويوضحون سبب امتزاج العمل التجاري والضمير. ويقيم هانك ريلينغ علاقة تشبيهية بين سيارات السباق والقيادة. ويقترح نيتين نوهريا طريقة فريدة لحفظ الميراث العزيز على النفس. وأخيراً يعرض كيم كلارك الباعث الذي يدفعك قُدماً إلى الأمام حين يشجعك على أن «تتذكر من أنت».

عندما تقرأ كل فصل من فصول هذا الكتاب، ستسمع صوتاً متميزاً كلياً. إذ يروي كل أستاذ قصته انطلاقاً من شخصية وخلفية ورسالة متباينة، وأسلوب مختلف عن قصص الآخرين. بعض هذه الأصوات ستلفت انتباهك، وهي تتحدث مباشرة عن حالتك الراهنة أو تجربتك الماضية. وقد يعرض بعضها الآخر أفكاراً وقضايا لا توافق عليها، أو يسهب أصحابها في شرح أحد جوانب القيادة الذي تجده سهلاً. ستكون كثير من الدروس والعبر جديدة تماماً؛ وأخرى ربما تعلمتها منذ زمن طويل لكنك نسيتها.

آمل أن تجد الكل في هذه المجموعة أكبر من حاصل جمع الأجزاء. وستلاحظ حين تصغي إلى هذه الأصوات المتباينة، أنك تدخل في حوار مع ذاتك حول معنى أن تكون قائداً. آمل أن تلهمك كما ألهمتني.